مقال للأب متى المسكين

الصليب
من الوجهة الإيمانية[1]

يستمدُّ الصليب قوَّته الخالدة واللانهائيَّة والخلاصيَّة من موت يسوع المسيح ابن الله عليه. فالمُرادف اللاهوتي لكلمة "الصليب" في المسيحية عميقٌ غاية العُمق، فكلمة "الصليب" تُعادِل في مضمونها الإيماني "إنجيل الخلاص" كُلِّه. فهي تعني في بساطةٍ وإيجاز: موت يسوع المسيح من أجل خطايانا. لذلك فالكرازة بالإنجيل، تعني الكرازة بالصليب.

والكرازة بالصليب للناس، لا تحتاج أقوالًا كثيرة أو حكمةً عميقة: «لاَ بِحِكْمَةِ كَلاَمٍ لِئَلاَّ يَتَعَطَّلَ صَلِيبُ الْمَسِيحِ» (١كو١: ١٧). فالصليب قوَّة وليس كلامًا، أي إنَّ الصليب لا يظهر للناس بالشرح، ولكن بالإيمان والعمل: «فَإِنَّ كَلِمَةَ الصَّلِيبِ عِنْدَ الْهَالِكِينَ جَهَالَةٌ، وَأَمَّا عِنْدَنَا نَحْنُ الْمُخَلَّصِينَ فَهِيَ قُوَّةُ اللهِ» (١كو١: ١٨).

وما هي قوَّة الصليب؟

أولًا: مصالحة:

فالمسيح على الصليب صالَح الخُطاة بالله، على أساس أنه مات من أجلهم كوسيط بينهم وبين الله، وسّفَكَ دمه من أجل خلاصهم ليغتسلوا ويتطهَّروا ويتقدَّسوا به؛ لأنه دم ابن الله القادر أن يُطهِّر أعماق الضمير من كافة الأعمال الميتة، والخطايا التي تستحق الموت.

كما إنَّ المسيح على الصليب صالَح الإنسان بالإنسان، لأنه قَتَلَ العداوة نفسها بالصليب، وذلك عندما جعل نفسه وسيطًا بين كلِّ عدوَّين مُتخاصمين في الوجود، يدفع عن كلٍّ منهما تعدِّياته وإساءاته: «وَيُصَالِحَ الاثْنَيْنِ فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ مَعَ اللهِ بِالصَّلِيبِ، قَاتِلاً الْعَدَاوَةَ بِهِ» (أف٢: ١٦).

فالذي يتمسَّك بالصليب يستمدُّ منه قوَّة الصُّلح والسلام التي أحرزها المسيح عليه، حتى يتصالح بها كلُّ إنسانٍ مع الله والناس: «عَامِلاً الصُّلْحَ بِدَمِ صَلِيبِهِ» (كو١: ٢٠)، ليس كأنها مرَّةٌ واحدة بالإيمان وحسب؛ بل بالمُمارسة اليومية، جاعلًا الصليب المُلطَّخ بدم

(١) عن كتاب: "الصليب المقدَّس"، للأب متى المسكين، طبعة ثالثة: سنة ١٩٧٩.

المسيح أمامه كلَّ حين، يستمدُّ منه الشجاعة والجرأة للقدوم إلى الله للخلاص من الخطية، فلا ييأس قط. كما يستمدُّ منه العون والمؤازرة ليصفح حالًا عن أخيه، ويتنازل عن حقِّه لكلِّ مَن يُسيء إليه، مُتمسِّكًا بقوَّة الدم الكريم الذي تخضَّبت به خشبة الصليب.

ثانيًا: انعتاق من سلطان الخطية:

يتغلغل سلطان الخطية فينا عن طريق الجسد، فارتباطنا بالخطية يكون بواسطة الجسد. والمسيح أَخَذَ جسدنا ومات به من أجلنا على الصليب، فأنهى بذلك كلَّ ارتباطٍ بين الخطية وبيننا، لأن الجسد الذي كنَّا مرتبطين به مع الخطية مات على الصليب: «إِذْ مَاتَ الَّذِي كُنَّا مُمْسَكِينَ فِيهِ» (رو ٧: ٦)، أي الجسد.

«وَإِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فِي الْخَطَايَا وَغَلَفِ جَسَدِكُمْ، أَحْيَاكُمْ مَعَهُ، مُسَامِحًا لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا، إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدًّا لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّرًا إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ» (كو ٢: ١٣، ١٤). وهنا يقصد بولس الرسول بعبارة: «مُسَمِّرًا إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ» أي : "الجسد"، وفي نفس الوقت "صكّ الخطايا".

إذن، فالذي يمسك بالصليب كرمزٍ لقوَّة الموت الإرادي عن الجسد، فإنه ينال الانعتاق من سلطان الخطيَّة، ويصير حُرًّا بروحه، ليعبد الله بجِدَّة الروح لا بعِتْق الحرف (انظر: رو ٧: ٦).

هنا قوَّة الصليب حقيقيّة وسريَّة، في نفس الوقت؛ وهي قوَّة موت وقوَّة حياة معًا. وكلما ركَّز الإنسان إيمانه وجهاده للحصول على هذه القوَّة، فإنه ينالها ويقهر بها سلطان الخطية.

ثالثًا: انعتاق من موت الكبرياء وقبول قوَّة الاتضاع:

علامة الصليب عند العالم هي رمز موت الخِزي والعار. فالرومان لم يستخدموا الصليب لمجرد الإعدام، وإنما للتشهير والفضيحة. فوسائل الإعدام كانت كثيرة عندهم، ولم يكن يُحكَم على إنسانٍ روماني الجنس قط بالصَّلب، فالصليب كان للأدنياء. لذلك نسمع بكلِّ وضوح الكتاب يقول: «احتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِينًا بِالخِزي» (عب ١٢: ٢). فالصليب آية اتضاع الله. والكتاب يقولها صراحةً: «وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ، مَوْتَ الصَّلِيبِ» (في ٢: ٨).

إذن، فقد شفى المسيح موت كبرياء الإنسان بفضيحة موت عار الصليب، ودَفَعَ ثمن عجرفة مُخالفة بني آدم بمذلَّة طاعة الموت على الصليب.

ولكن من حضيض مذلَّة الصليب، استخرج لنا المسيح الخلاص من الموت، والانعتاق من الكبرياء الذي قتلنا.

إذن، فليست قوَّة في الوجود تُلهِم الإنسان الاتضاع وتشفيه من الكبرياء، قدر قوَّة الصليب، حينما يستلهم منها الإنسان في كلِّ لحظة مواقف التنازُل والانخفاض: «فَلْنَخْرُجْ إِذًا إِلَيْهِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ حَامِلِينَ عَارَهُ» (عب١٣: ١٣).

«إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي ... يَحْمِلْ صَلِيبَهُ كُلَّ يَوْمٍ، وَيَتْبَعْنِي» (لو٩: ٢٣)، أي يحمل اتضاعه ويحتمل مذلَّته مثلي. فمن خلال خِزي الصليب وعاره، استطاع المسيح أن يُعلِن حكمة الله ومجده. لذلك، فالصليب هو قوَّة الاتضاع، التي هي بعينها حكمة الله لخلاص الإنسان ومجده.

رابعًا: غلبة الشيطان:

إنَّ من أعمق أسرار الصليب، اندحار الشيطان بواسطته. فالربُّ لمَّا سُمِّر على الصليب، صَدَرَ في الحال حُكْم الله بدينونة الشيطان وهلاكه الأبدي بمقتضى العدل الإلهي. لأنه عندما تسبَّب الشيطان في موت الإنسان كان له العذر، إذ إنَّ الإنسان وافق مشيئة الشيطان وعصى الله مثله، واستحقَّ الموت واللعنة. ولكن لمَّا تسبَّب الشيطان في موت ابن الله، لم يكن له أدنى عذر، لأنه معروفٌ أنَّ المسيح لم يصنع خطية واحدة، ولا وُجِدَ في فمه غش، وقد تمَّم كلَّ مشيئة الله. إذن، فقاتِل البريء لا بد أن يُقتل.

لقد اكتشف الشيطان مُخالفته العظمى لله على الصليب، وسقط في يد ابن الله! فبمجرد أن قَبِل المسيح الموت، تجرَّد الشيطان من كلِّ سلطانه: «إِذْ جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينَ أَشْهَرَهُمْ جِهَارًا، ظَافِرًا بِهِمْ فِيهِ (أي في الصليب)» (كو٢: ١٥).

كان الشيطان قبل الصليب يجهل مصيره؛ أمَّا على الصليب، فقد عرف كلَّ ما ينتظره. لذلك صار له الصليب، وثيقة الدينونة التي سيُحاكم بمقتضاها، وصورة الحُكْم بالهلاك الأبدي.

ومن هنا أصبحت علامة الصليب علامة رُعبة للشيطان وكلِّ جنوده. لقد ترك الله الشيطان مُقيَّدًا بالصليب إلى الآن، إلى أن يأتي زمان الدينونة. وأصبح لكلِّ إنسان، حتى الطفل، سُلطان أن يُقيِّد الشيطان بالصليب، كما قيَّده المسيح وحلَّ قوَّته وسلطانه.

لذلك، فكلُّ مَنْ يتمسَّك بقوَّة الصليب، يأخذ غلبة على الشيطان.